داعى الدعاة

ونظم الدعوة عند الفاطميين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدعاية من أعظم العوامل التى عاونت على ظفر الحلفاء فى الحرب الكبرى ؛ وللدعاية فى عصرنا أعظم شأن فى تكوين الرأى العام ، وفى توجيهه إلى النواحى والغايات التى يراد توجيهه إليها ، ولا يخفى ما للرأى العام اليوم من القوة والنفوذ حيثما تتاح له فرص الظهور والاعراب ؛ فى الأمم الديمقراطية التى مازالت الحريات العامة فيها قائمة مكفولة يتمتع الرأى العام بكل قوته ونفوذه ، ويحسب حسابه ، ويحدث أثره فى توجيه الحوادث والشؤون ؛ وحتى فى الأمم التى تسودها النظم الطاغية ، وتسحق الحريات العامة ، ويسلب الرأى العام والخاص كل حرية فى القول والاعراب ، تتبوأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأى الكافة ، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين ، وإخفاء ما يراد إخفاؤه من عيوب النظم الطاغية والاشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا وتحقيق الاصلاح والخير العام ؛ وفى سبيل هذه الغاية تعتمد النظم الطاغية على هيئات قوية محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة كالصحافة والأدب والراديو والتمثيل والسينما وغيرها مما تلمس أثره فى تكوين الرأى العام وتوجيهه وتثقيفه

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة فى النظم الجديدة ، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله فى غيرها ، وقد بلغت فى بعض الدول مرتبة الوزارة الخاصة ، وأضحت من دعامات الحكم الجديد التى يحسب حسابها فى حشد الرأى العام وفى توجيه حيثما شاءت السياسة العليا . بيد أنا سنرى فى هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً ، ولم تنفرد به تلك الدول والنظم التى تفاخر به وتعتمد عليه ، وانه قد عرف فى الدول الاسلامية قبل ألف عام ، واتخذ كما يتخذ اليوم أداة قوية لغزو الأذهان وتوجيه رأى الكافة ، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة

أجل عرفت الدولة الاسلامية قيمة الدعاية ولجأت فى مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة : بيد أنها لم تدمج فى هيئة خاصة ، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا فى الدولة الفاطمية . فى ظل هذه الدولة القوية المدهشة نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة وتوضع لها نظم هى آية الطرافة والبراعة ، ونجد هذه الهيئة الرسمية التى تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ترتفع إلى مرتبة الوزارة ، وتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لأمامتها وزعامتها الدينية

لما استقر الفاطميون بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية ، ذلك أنها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهدا خصباً لدعوتها ، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية ؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية ، وغزو الأذهان بطريقة منظمة ، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة فان الدعاية المنظمة هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة . وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك ، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها ، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية ؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه إلى جنبات الأمبراطورية الفاطمية الشاسعة وإلى سائر الأقطار الاسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية ، ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، نراها تنتظم فى القصر الفاطمى وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها ، وكان يقوم بالقاء هذه الدروس قاضى القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة ، وكانت تلقى أحيانا فى القصر وأحيانا فى الجامع الأزهر ؛ وينوه المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية باقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس

والجلسات المذهبية فيقول لنا إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم « ل البيت على الرسم المعتادفات فى الزحام احد عشر رجلا ، فكفنهم العزيز بالله . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التى بدأت فى صورة الدروس الفقهية المذهبية ، وهى دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة ، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، هى الدعوة الفاطمية السرية التى كانت الخلافة الفاطمية تجد فى بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها فى حظيرتها المذهبية ، الدينية والسياسية ؛ وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها أن أنشأت لها خطة دينية تضارع فى المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها ؛ وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها ؛ وكان متوليه ينعت بداعى الدعاة وهو أيضا من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها الدولة الفاطمية ؛ وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية وفى أسرار الدعوة ويعاونه فى مهمته اثنا عشر نقيبا وعدة كبيرة من النواب يمثلون فى سائر النواحى : وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التى يشرف عليها داعى الدعاة ، تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته فى إيوان القصر الكبير : وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر ، وهو المسمى « بالمحول » ، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها فاذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعى فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهى رسم اختيارى صغير يجبى من المؤمنين للأنفاق على الدعوة والدعاة ، وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب ـ ورجال الدولة والقصر ـ ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ؛ وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة ، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها ؛ وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس الشهيرة ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ويعقد مجلس للأجانب الراغبين فى تلقى الدعوة ؛ وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعا إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقا لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هى سجل فاطمى باقامة داعى الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لاذاعة الدعوة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة مايأتى : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الامامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن باقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوفيقهم من علومها على مايلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان . . . »

ومنها فى شرح واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحبّ الا فى مزرعة لاتكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات الى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التى تخرج اليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن اسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ،

ودل على اتصال الممثل بالممنون ؛ فان الظواهر أجسام ، والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها . . . . (١)

وفى هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها فى غزو الاذهان وحشدها من حولها ؛ ومن المعروف ان الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الامامة الدينية شعارها ، ومرجع زعامتها الدينية فى العالم الاسلامى ، وشرعية ملكها السياسى ، فالدعوة الفاطمية التى كانت تلقى فى مجالس الحكمة الى الكافة والى الخاصة متدرجة فى مراتب من السرية والتحفظ طبقا لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية ، كانت رغم صفتها الدينية ، ترمى فى النهاية الى أغراض سياسية ؛ ذلك أن الخلافه الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين ، ومتى اجتمعوا فى ظل الامامة وتحت لوائها ، استطاعت أن تحركهم وان توجههم وفق مصالحها وغاياتها ، وان تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال

والدول المحدثة التى تعتمد فى عصرنا على سلاح الدعاية ترمى الى مثل هذه الغاية ؛ فهى تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحيانا على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته . ولم تكن الخلافة الفاطمية ، وهى من دول العصور الوسطى ، تتمتع بشىء من هذه الوسائل القوية المحدثة ، ولكنها مع ذلك استطاعت ان تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة ، وأن تجنى كثيرا من الثمرات المادية والمعنوية ، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية . وذيوع هذه الدعوة فى قبائل إفريقية البربرية هو الذى جمع كلمة القبائل حول عبيدالله المهدى ، وهو الذى مهد لقيام الدولة الجديدة

والخلاصة ان فكرة الدعاية التى تتبوأ فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة ، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية ، مكانة خاصة ، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان فى عصرنا ، ليست جديدة فى ذاتها أو غاياتها ، وان كانت جديدة فى وسائلها ، وقد عرفتها الدول الاسلامية قبل الف عام ، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكى وابرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عنان

(١) صبح الاعشى ج ١٠ ص ١٢٤ وما بعدها

فى الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول ، مطلق السجية فى الإعراب عن الشعور الإنسانى ، وتظل له هذه السمة حينا ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة ، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواره ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لها كنهها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين ، وربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ؛ وكذلك الثقافة العقلية التى فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما ربما زيفت على الإنسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده وسد آفاقه ، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور ، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الاخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وإنما يزداد إمعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، وإغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بألاعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها ، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على إبداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها وروائع أسرارها ومخاوفها ،